تعلم كيف تتعلم، ولماذا تتعلم ؟

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 27 فبراير 2022

بقلم: الدكتور زكريا الخنجي

الكثير منا يعتقد أنه بالتخرج من المدرسة أو الجامعة والدخول في معترك الحياة والوظيفة أو العمل، تنتهي بالنسبة له عملية التعلم، وتبدأ مرحلة الراحة من القراءة والمطالعة والكتاب وما إلى ذلك من شقاء، هؤلاء يتخيلون أن التعلم مرحلة وتنتهي، ولكنهم لا يعلمون أو بالأحرى لا يريدون أن يعرفوا أن عملية التعليم تختلف عن عملية التعلم، فالتعليم عملية تحدث في المدارس والجامعات والمنشآت التعليمية، أما عملية التعلم فإنها عملية فردية مستدامة لا تنتهي أبدًا.

ونحن نعلم أننا كمسلمين يجب ألا نأخذ عملية التعلم وكأنها شيء ترفي، وإنما نحن مطالبون بأن نتعلم، فالتعلم فرض من فروض الإسلام على المسلم، لأنه إن تعلمنا فإننا يمكن أن ندرك الأمور، وأن تتفتح الأذهان والعقول، وتسبح الأفكار في كل البحور، وبالتالي تُطرح الأسئلة وهذا يعني أنه سوف نبحث عن إجابات لهذه الأسئلة حتى نصل إلى الحقائق، فاللّه سبحانه وتعالى لم يرفض طلب سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما طلب أن يعرف كيف يُحي اللّه الموتى، ولم يرفض طلب سيدنا موسى عليه السلام عندما طلب أن يرى اللّه سبحانه، هؤلاء

الأنبياء لم يكن لديهم شك في الذات الإلهي، وإنما كما قال سيدنا إبراهيم (ليطمئن قلبي)، فعملية التعليم والتعلم تساهم بصورة كبيرة في اطمئنان القلب والعقل والوجدان، لذلك نتعلم، فلولا التعليم لما تكونت الحضارات والمعرفة ولم يزدهر الفكر الإنساني، وبناء على ذلك فالإنسان والمسلم بصورة خاصة مطالب بالتعلم وفي أي سن كان، فلا زمان يحد من تعلمنا ولا مكان.

وحتى نتعلم بعد المراحل التعليمية والجامعة فإنه ينبغي علينا أن نتعرف على بعض الأمور المهمة والتي تساهم بصورة كبيرة في الارتقاء بنا وبالعملية التعليمية، وهي:

أن المدارس والجامعات تعلمنا أبجديات العلوم فقط، فمهما تعلمنا وتخرجنا وتملكنا الشهادات والرخص العلمية، فإن تعلمنا سيكون محدوداً في حدود ما تعلمناه في المؤسسة التعليمية، فأنت امتلكت شهادة الدكتوراه في التخصص الفلاني، فهذا يعني أنك محصور في هذا التخصص، ونحن لا نرفض التخصص ولا نقلل من شأنه، فهذا أمر مطلوب وخاصة في هذا العصر الذي زادت فيه المعرفة والعلوم. ولكن تصور أنه بعد تخرجك من تخصصك الدقيق – وهذا أمر جيد لا غبار عليه – أخذت تقرأ في بعض العلوم الأخرى، من هذا العلم قليلاً ومن ذلك العلم قليلاً، ستجد نفسك بعد برهة من الزمن أن عقلك بدأ يتوسع بصورة لم تكن تتخيلها، وليس المطلوب منك أن تقرأ وتتعلم حتى التخصص،

وإنما أن تعرف في بعض الأمور الأخرى خارج إطار تخصصك، فإن كنت مهندسًا – مثلاً – فما العيب في أن تقرأ وتدرس في علوم الإدارة ؟ وإن كنت متخصصًا في الكيمياء أو الفيزياء فما المشكلة في أن تدرس علم الاجتماع ؟ ربما في لحظة ما تحتاج إلى هذه المعرفة وهذا العلم، وربما لن تحتاج ولكن هذا العلم الآخر حتمًا سيوسع مدارك المعرفة لديك.

لا تؤطر نفسك في تخصصك؛ دائمًا يكون التخصص هو الإطار الذي يقيد خيال وفكر الإنسان، وأكرر إن التخصص مطلوب، فلا يمكن أن تعمل في أي قطاع إلا من خلال تخصصك، ولكن لا تقيد نفسك بهذه الشهادة الورقية أو الإلكترونية التي تم منحك إياها من قبل الجامعة أو المدرسة التي تخرجت منها. وهكذا يقول الكثيرون من الذين التقينا بهم، "أنا متخصص في المادة الفلانية لذلك لا أقرأ ولا أتبحر إلا في هذه المادة"، نجد أن هذا المفهوم ضيق – وقد يختلف معي بعض الناس – ولكن بعد فترة من الزمن ستجد نفسك في مأزق حقيقي لأن الناس تتحدث في أمر معين وأنت في واد آخر لا تعرف ماذا يقولون وعن ماذا يتحدثون.

وقد حدث لي ذلك بالفعل، فذات مرة كنت في لقاء مع بعض الأخوة في واحدة من دول الخليج العربي وكان الحوار يدور حول اختبارات الذكاء، فقلت بكل سذاجة "وهل للذكاء اختبارات ومقاييس ؟" فأجابوا بالإيجاب، فقلت "لأول مرة أعرف هذه المعلومة".

ولكن أيضًا لا تكن مثل الكثير من الناس الذين يتحدثون في كل شيء، لمجرد أن يقال عنهم إنهم يعرفون، فالثقافة والعلم تجبرانك على التواضع، فإن كنت لا تعرف فاصمت، وإن كنت تعرف تحدث فيما تعرفه فقط وفي حدود المعرفة.

أي نمط تعلمي أنت؛ الأنماط التعليمية للبشر ثلاثة، وهو النمط البصري والنمط السمعي والنمط الحسي، وحتى نعرف الفرق بينها، لنتخيل ثلاثة أفراد دخلوا محلاً لبيع القماش، فالنمط البصري يمكن أن يرى روعة قطعة القماش من بعيد، فهو يعجب بقطعة القماش لمجرد أن شاهدها من غير أن يلمسها أو أن يعرف أي شيء عنها، فقط بالنظر، أما النمط السمعي فإنه ينتظر البائع ليسمع منه تفاصيل قطعة القماش، يحب أن يتعرف على بلد المنشأة وما المادة التي صنع منه القماش، واسم المصنع وكل المعلومات عندئذ ربما يعجب بالقماش لأنه عرف عنها العديد من المعلومات، أما الثالث وهو النمط الحسي فإنه يحب أن يشعر بملمس القطعة، فلا بد أن يلمسها بيده، وربما يمسحها على وجهه، ويمررها على جسده حتى يرى نفسه من خلالها، وهكذا.

فالنمط التعليمي البصري يفضل أن يرى كل شيء بعينيه، يقرأ من الكتاب، يحب أن يرى الأمور والأشياء تجري أمامه، يشاهد أفلامًا تعليمية، وأما النمط السمعي فإنه يفضل أن يقوم أحد بالشرح له لبعض التفاصيل، فهو يحب أن يسمع أكثر من أن ينظر، أما النمط الحسي فإنه

يفضل أن يلمس الأوراق وأن يكتب وأن يستشعر الأدوات، فحتى تعرف كيف تتعلم أكتشف من أي الأنماط أنت ومارس كيفية التعلم بالنمط الذي أنت منه.

استخدم تقنية الطماطم؛ تعرف هذه التقنية أيضًا بالبومودورو، وهي تقنية إيطالية لإدارة الوقت طوّرها الإيطالي فرانشيسكو سيريلو في أواخر الثمانينات، وذلك عن طريق استخدام مؤقت أو ساعة توقيت لتقسيم وقت العمل إلى فترات زمنية مدة الواحدة منها 25 دقيقة، ويفصل فيما بينها فترات راحة قصيرة تتراوح ما بين 3 – 5 دقائق، وتسمى الفترة الواحدة (بوموداري)، ويستند هذا الأسلوب على فكرة التوقف المتكرر من أجل الراحة التي يمكن أن تحسن سرعة البديهة والتركيز، ولتطبيق هذه الطريقة عليك بالخمس خطوات الأساسية التالية:

أ. اختر العمل أو المادة التي تريد قراءتها أو الذي تريد القيام به.

ب. اضبط المؤقت على 25 دقيقة في العادة.

ت. ابدأ في العمل حتى ينتهي المؤقت.

ث. خذ فترة راحة قصيرة لمدة 3 – 5 دقائق ثم عاود مرة أخرى واستكمل.

ج. عند كل 4 بروموداري (فترات عمل) خذ راحة من 15 إلى 30 دقيقة.

وبعد إنجاز المهمة، يخصص الوقت المتبقي من الـ(بوموداري) في تنقيح العمل وزيادة جودته، كما يجب أخذ فترات راحة منتظمة لزيادة الاستيعاب، بحيث تكون هذه الفترات بمدة 3 – 5 دقائق تفصل ما بين كل فترتين متتاليتين، وكل أربع (بروموداري) تشكل مجموعة، ويتم أخذ راحة طويلة بمدة 15 – 30 دقيقة بين كل مجموعة. والهدف الأساسي من هذه التقنية هو للحد من تأثير المقاطعات الداخلية والخارجية على التركيز وتدفق المعلومات، فتقنية البروموداري غير قابلة للتجزئة، فعند المقاطعة أثناء بروموداري، يتم تسجيلها وتأجيلها، ولا تستكمل بل يجب الاستغناء عنها وتعويضه ببروموداري جديدة.

ابدأ من الصعب والأهم؛ في كتبه (ابدأ بالأهم ولو كان صعبًا) يشير برايان تريسي إلى إنه إن وضع لك الاختيار بين أن تختار الصعب والأصعب، أو أن تأكل ضفدعة قبيحة وضفدعة بشعة وقبيحة جدًا، فإنه من الأفضل أن تأكل الضفدعة القبيحة جدًا والبشعة لأنه ما سيأتي بعد ذلك سيكون سهلاً.

ونحن نعلم أن القراءة اليوم أصبحت – نوعًا ما – مهجورة فما بالنا أن تحدثنا عن العملية التعلمية، فنحن لا نحب أن نتعلم إلا إن كان ما نتعلمه يخدم مصلحة ما، فإن كنتُ أريد أن أدخل صفقة ما فأنا أتعلم كل ما يدور حول الصفقة، وإن طُلبتُ لمقابلة عمل في المؤسسة الفلانية فإنه من المحتوم أن أقرأ كل شيء عن تلك المؤسسة وما اهتماماتها

وما إلى ذلك، ولكن أن أتعلم لمجرد الرغبة في التعلم، فهذا أمر نوعًا ما أمر ثقيل وصعب.

لذلك فإنه على الرغم من أن العملية التعلمية صعبة، إلا أنها من الحتمية والضرورية جدًا أن نبدأ بها اليوم وأن نتعلم حتى بعد أن نتخرج من أي مستوى تعليمي.

التكرار؛ حتى تنجح أي عملية تعلمية فإنه ينبغي أن نكررها مهما كانت صعبة، فإن فشلنا في المحاولة الأولى لأننا بدأنا من الصفر، فإننا في المحاولة الثانية سنبدأ مع بعض التجارب لذلك لن نبدأ من الصفر، وإنما ننطلق من خبرة ما وهذا يعني أنه يمكن أن ننجح. فالعملية التعليمية – كما أشرنا – ليست سهلة وإنما تحتاج إلى عزيمة وإصرار وتكرار، وهكذا يمكننا أن نستمر.

هذه بعض الخطوات، وكما يقال هذا غيض من فيض، والمهم في كل ذلك أن نتعلم ونتعلم كيف نتعلم.